الرحلة و كتابة تاريخ بلاد المغرب
رحلة التمقروتي أنموذجا

حميد أيت حبوش
جامعة تلمسان

Abstract:

The trip was not actually humanly still the fanciest indicates a high degree of cultural awareness, due to the benefits of the owner, are many. There is no doubt that the University of bus travel and the lessons learned, and massing of science and knowledge and sharpen the mind and conscience and increase the understanding and perception, and fine-tune personal experience thanks to the hardness and heat attitudes and awe adventure.

Keywords:

The trip - knowledge – hardness– Rules- science.

كانت الرحلة ولا زالت فعلا إنسانيا راقيا يدل على درجة كبيرة من الوعي الحضاري، يعود على صاحبه بفوائد، كثيرة. فما من شك أن السفر جامعة حافلة بالدروس والعبر، و تحتشد بالعلم والمعرفة وتشحذ العقل والوجدان وتزيد في الفهم و الإدراك، وتصقل الشخصية بفضل قساوة التجربة وحرارة المواقف ورهبة المغامرة وطلعة الجديد في كل شأن ومجال

ومواجهة المفاجآت وتحمّل مشاق الغربة و السفر، و كذلك الإطّلاع على الطبائع المختلفة والإعتياد على الغريب و التمرس بمعاملته.و لقد قال الكاتب الفرنسي **(سافاري)**[1] في هذا الشأن: "إن الرحلة أكثر المدارس تثقيفا للإنسان"[2].و قال :(**إليوت)** [3] عن الرحلة أيضا مايلي: "ارتحلوا ... انطلقوا أيها الرحالة فأنتم لستم نفس الأشخاص عند بدء الرحلة".و حتى القرآن الكريم يأمر بالإرتحال والسير في الأرض في قوله تعالى: (قُلْ سيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَ أُنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِبِينَ)[4].و في قوله عزّ و جلّ:(هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكبهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُشُورُ)[5].

-مضامين الرحلات:

لقد تكاملت الرحلات في إبراز المستوى العلمي والأدبي، واستطاعت أن تعكس بأمانة ما كان يطبع البيئة جغرافيا واجتماعيا وحضاريا في البلدان والمناطق التي شملتها الرحلات.و ليس بالإمكان الإلمام بكل المضامين نظرا لكثرتها و تشعبها، مما يجعل الإحاطة بها أمرا شاقا، و لذلك سنقتصر على المضمون الجغرافي، والعلمي والاجتماعي والأدبي.

أ: المضمون الجغرافي:

نستطيع عن طريق الرحلات التعرّف على الطرق و المسالك التي كان يسلكها الرحالة بحرا و برا، و نستطيع من خلال رحلة **(ابن بطوطة)** خاصة

رسم معالم الطرق التي كان يتبعها المتجوّل في بلدان العالم في آسيا و إفريقيا وأوربا.كما ترشدنا الرحلات الداخلية إلى المسالك والطرق التي كانت تربط بين المدن المغربية أو الجزائرية المختلفة.ونستطيع من خلال ذلك التوصل إلى ضبط المسافات الفاصلة بين هذه البلدان انطلاقا من ذكرهم للمراحل وتحديدهم للزمن.

و في الرحلات أيضا، اهتمام بوصف البلدان التي مرّ بها الرحالون أو نزلوا فيها، إلا أن هناك تفاوت في الاهتمام بوصف هذا البلد أو ذاك و لعلّ المدن التي نالت حظا كبيرا من طرف الرحالين، تلك التي قصدوها في البقاع المقدسة بالحجاز والشام، أو المدن التي مروا عليها في الطريق إلى المشرق أو التي صادفوها في رحلاتهم، لذلك وصفت بلدان في آسيا وإفريقيا و أوربا و الأمثلة كثيرة في رحلة كل من "التمقروتي"، "الوزان"، "ابن رشيد"، "ابن بطوطة"، و أعار الرحالون اهتماما خاصا أيضا لمشاهدتهم أثناء تجوالهم داخل البلدان والمدن التي دخلوها، فوصفوا الآثار المختلفة، و تحدثوا عن الأضرحة والزوايا، كما أشاروا إلى جوانب أخرى طبيعية واقتصادية كحديثهم عن السيول والأمطار والثلوج والأسعار و الأزمات الاقتصادية و الصناعات والحيوانات و الموارد الاقتصادية المختلفة[6].

ب: المضمون الاجتماعي:

نعثر في الرحلات ملامح اجتماعية هامة، قد لا نصادفها في غيرها، فلم يكن الرحالون يكتفون بلقاء الأعلام والشخصيات و تدوين الروايات

و إنما كانوا يختلطون بأفراد المجتمعات، و يجالسونهم و يتحدثون إليهم، مما جعلهم على إطّلاع واسع بأحوالهم و عاداتهم و أنماط سلوكهم، و كانت رحلة (**الوزان**) وأيضا رحلة (**ابن بطوطة**) على الخصوص سجّلا حافلا بأخبار الناس و عاداتهم وأخلاقهم ومذاهبهم[7].

كما تحدّث الرحالون عن البدع التي انتقدوها في البلدان التي مرّوا بها و على الخصوص ما شاهدوه في البقاع المقدسة، كما تحدثوا عن عادات الشعوب التي خالطوها و احتكوا بها فأشاروا إلى عادة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، مثل ما أشار إليها (**التمقروتي**) في رحلته عن كيفية احتفال السلطان السعدي بهذا المولد[8].كما أشار الرحالون إلى شيوع التصوّف و منزلة الأولياء و وصف الأحوال الأمنية في الطرق و البلدان التي دخلوها.

ج- المضمون العلمي:

وهو الجانب الأوفر في معظم الرحلات، لأن من دوافع الرحلة لقاء الشيوخ والإطلاع على المكتبات والحصول على الأسانيد والروايات والإجازات وجمع القصائد و الدواوين الشعرية و الفهارس والبرامج والكتب النادرة.

و لقد أسهب الرحالون جميعهم في ذكر الشيوخ والتحدّث عن مجالسهم العلمية، والعلوم و الفنون التي نوقشت في هذه المجالس و القضايا التي أثيرت فيها.و من هنا كان مقياس نجاح الرحلة و توفيق صاحبها

مرهونا بما استطاع جمعه في غيابه عن بلده من معلومات و نصوص و كتب و إجازات.

و نظرا لهذا الحرص على جمع الفوائد و جلب الكتب، فإن الرحالة كثيرا ما يعلن أسفه على عدم تمكنه من إشباع فهمه العلمي حينما لا تسعفه ظروف الرحلة بجمع ما يرغب فيه من المعارف[9].و من خلال الرحلات يمكننا التعرف على العلوم التي كانت سائدة في المجالس العلمية، كعلم القراءات، الفروع الفقهية ، الدراسات الحديثة و التصوّف[10].

د: المضمون الأدبي:

تعتبر الرحلات مصدرا هاما للإنتاج الأدبي بما تتضمنه من نصوص ونماذج أدبية تكاد تكون نادرة، فأصبحت بذلك الرحلة هي ديوان للكثير من الشعراء الذين لا توجد لهم دواوين تجمع أشعارهم و تحفظ إنتاجهم.

و بفضل الرحلات تم الاحتفاظ على الآثار النادرة، و لولاها لكانت عرضة للاندثار و النسيان، و من الأمثلة عن هذه الآثار النادرة، قصيدة **(ابن الفكون)**[11] في رحلته من قسنطينة إلى مراكش[12].

لذلك تضمنت الرحلات نصوصا أدبية كثيرة في الشعر والنثر والنقد، لا يستغنى عنها في دراسة الأدب، فحتى الرحلات التي كان يقوم بها أصحابها لطلب الحديث والرواية و قيام بمهمة سفارية ،كان للشعر الحظ الأوفر والنصيب الكبير في مضمونها. فأغلب الرحالين حرصوا على نقل الأشعار وروايتها، وسجلّوا لأنفسهم أيضا قدرا مهما من القصائد

الشعرية، فكانت هذه الرحلات بمثابة دواوين لأصحابها، خصوصا إذا علمنا أن أكثرهم لا يعرف لهم أشعار إلا من خلال ما أثبتوه في رحلاتهم، و أحسن مثال على ذلك، رحلة (**التمقروتي**)، لا يخلو مضمونها من أبيات شعرية[13]

-التعريف بأبي الحسن التمقروتي :

هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي محمد التمقروتي[14]، ولد سنة **1534**م وتربى في بيت علم و صلاح، فقد كان لجده علي بن محمد شهرة كبيرة في منطقة درعة[15]، و كان والده محمد من أهل الصلاح، أخذ عن الشيخ الصوفي عبد العزيز القسنطيني، و كان عمه عبد الله من أهل التصوف، رحل إلى تونس وصاحب فيها الشيخ عبد العزيز السابق ذكره، و لازمه حتى وفاته بتونس، و كان أخوه محمد عالما وأستاذا للأمراء السعديين و إماما لجامع المشور بفاس حتى وفاته بها سنة **1580**م، وقد سبق أن وجهه السلطان السعدي عبد الله الغالب[16]سفيرا إلى إسطنبول. وذكره التمقروتي مشيرا إلى أنه سفر قبله عند الأتراك العثمانيين، و ندما مرّ بجزيرة كلبلي[17] تذكر مقولة أخيه عنها: (لا يصلها إلاّ من بُليَ).أما أخوه الثاني، الحسن، فقد كان رجلا فاضلا فقيها نحويا، أخذ عن عدد من علماء فاس، مثل أحمد المنجور[18].

هكذا تربى (التمقروتي) وسط عائلة متصفة بالصلاح متحلية بالعلم لها صلات بالسلاطين السعديين، و عاش في كنف والده الشيخ محمد

البكري، و تعلّم في زاوية والده هو و أخوه محمد، و أخذ عن مشايخ منطقة درعة، ثم كلّف بالتدريس في الزاوية[19].

و تقلّد مناصب هامة و رسمية ببلاط مراكش، و كلّفه السلطان السعدي أحمد المنصور[20] بسفارة إلى إسطنبول[21].توفي التمقروتي سنة **1594**م، و دفن بروضة القاضي عياض بمراكش[22].

-رحلته (النفحة المسكية في السفارة التركية):

تعتبر من المصادر الأساسية لتاريخ حوض الأبيض المتوسط، و قد اعتمد عليها العديد من الباحثين في مجالات مختلفة، استلهم فيها التمقروتي نموذج الرحالة الذين تأثر بهم، و خصوصا خالد البلوي[23].و تحريره لهذا الكتاب كان بعد عودته من مهمته كسفير السلطان المنصور إلى إسطنبول، وقد اعتمد التمقروتي أثناء التحرير على خمسة مصادر وهي رحلة البلوي، العقد الفريد لإبن عبد ربه[24]، رحلة ابن بطوطة[25]، كتاب (المسالك والممالك) للبكري[26]، ومدارك القاضي عياض[27].

و قد كتب (**التمقروتي**) بأسلوب واضح، في وصفه للمراسي التي حطّ بها الرحال، بعيد عن أي تزويق أو تنميق، و أحسن مثال على ذلك وصفه الدقيق الواضح لمدينة إسطنبول ببناياتها و أزقتها و تجارتها و عاداتها و نظام الحكم و التسيير فيها، إلاّ أنه كان يحاول استكمال الصورة التي يرسمها لبعض المراسي باقتباس من أوصاف سابقة لعهده، ليقارن بين وضعية المدينة عند واصفيها ممن سبقوه من الرحالة، و بين ما آل إليه أمرها

عندما مرّ بها فعندما وصل (**التمقروتي**) إلى وهران وصفها ثم أورد وصف ابن عبد ربه لها وما قال عنها البكري، وتكرّر نفس النمط في مستغانم و الجزائر و بجاية، و في معظم المراسي التي توقّف بها. ويذكر ضمن ما يذكر رجالها المرموقين علما أو إصلاحا، موتى أو أحياء، مضمنا ذلك كلام من سبقه عنهم، إلاّ أن تأثره بخالد البلوي وإعجابه به جعله يبالغ من جهتين، أولّهما الإكثار من النقل عنه، خصوصا في ذكر من لقيهم البلوي من رجال بجاية و تونس، و هو نقل استغرق ما يفوق العشرين صفحة من كتابه. ومن جهة ثانية، التأثر بطريقة كتابة البلوي و الإعجاب بأسلوبه، حيث حاول (**التمقروتي**) النسج على منواله في بعض مقاطع ﴿النفحة...﴾ خصوصا عند وصف احتفال أحمد المنصور بعيد المولد النبوي، أو لمراسيم تجديد البيعة، نقل (**التمقروتي**) حرفيا أسلوب البلوي دون أن يحيل عليه في مقطعين طويلين، فهو في وصفه لعلاقة الأخوة التي ربطت بينه و بين محمد بن علي الفشتالي خلال سفرهما، يورد نفس الكلام للبلوي في حديثه عن أبي العباس أحمد النقاوسي ونلاحظ نفس التطابق في الكلام عن حديث (**التمقروتي**) عن أشراف السعديين،حيث يورد نفس كلام البلوي، وهو يتحدّث عن محمد بن يحي الحسني[28].

- تاريخ التأليف:

عاد التمقروتي إلى بلدته في مارس **1591**م، و كانت وفاته سنة **1594**م فيكون تاريخ انتهائه من تأليف الكتاب بين هذين التاريخين، بينما يعود

تاريخ نسخة الطبعة الحجرية المعروفة عندنا اليوم إلى سنة **1716**م ، الذي قام بنسخها هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن إبراهيم الجزولي البكري الدرعي . وبنص كلمات هذه النسخة: (انتهى بحمدالله تعالى وحسن عونه على يد كاتبه محمد بن عبدالرحمن الدرعي).

و يعتقد أن الرحلة المتداولة حاليا هي عمل مصحح عن نسخة ترجع إلى سنة **1716**م، و التي تعكس إلى حدّ ما طبيعة العلاقات المغربية العثمانية بعد سنة **1708**م.

-النسخ المتوفرة من كتاب (النفحة المسكية في السفارة التركية):

1-نسخة المكتبة الوطنية للمملكة المغربية: قسم الوثائق و المخطوطات، تحت رقم **2829** ك، و هي أقدم من النسخة المخطوطة الثانية، تآكلت أطراف أوراقها و اعتورتها ثقوب تحول في بعض الأحيان دون القراءة السليمة، بل إن الصفحة الأولى من المخطوط امحي نصفها الأسفل تماما.وفي وسط المخطوط حالت خروم و آثار سوائل دون تبيان أطراف بعض الصفحات، لكن النسخة عموما مقروءة بعد تمعن وجهد. في الصفحة الأولى قبل بداية نص الرحلة تقييدات تصعب تبينها يبدو أنها تواريخ وفيات، أو أبيات سائرة على عادة المغاربة في تدبيج أشياء من هذا القبيل في مخطوطاتهم،عدد صفحاتها**190** صفحة، وفي الهوامش تصحيحات وتوضيحات وتعليقات سريعة بخط مغربي وبصمغ أسود

داكن يبدو أنه أحدث زمنا من الخط الذي به كتب نص الرحلة، و قد كتب اسم الجلالة وعناوين الكتب وأسماء الأعلام بلون مغاير.

و في آخر المخطوط، بعد الإشارة إلى الفراغ من نسخ النسخة على يدّ محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن إبراهيم الجزولي ثم التمقروتي ثم البكري نسبا الدّرعي دارا و منشأ بعد العصر من يوم الأحد التاسع و العشرين من صفر عام 1128هـ قصيدة حجازية للسيد الفاضل المكرّم الوجيه المعظم سيدي محمد بن إبراهيم التمقروتي رحمه الله.

2-نسخة المكتبة الوطنية للمملكة المغربية: قسم الوثائق و المخطوطات، تحت رقم 795د، عدد صفحاتها 334 صفحة[29]، خط مغربي جميل مقروء، إلاّ أن النسخة من حيث الأخطاء العامة، صورة طبق الأصل عن النسخة السابقة، في هوامشها تصحيحات وتعليقات بقلم رصاص وبصمغ أسود، ولقد أصابت الرطوبة جزءا من غلافها الخارجي.

3-نسخة المستشرق هنري دوكاستري المترجمة[30]، عدد صفحاتها 130 صفحة وقد ذيّل المترجم نص الترجمة بكشاف كما أنه أورد هوامش وتعليقات ذكية أسفل كل صفحة، مع الإشارة إلى أن دوكاستري تصرّف تصرّفا واسعا في النص الأصلي للرحلة.

4-طبعة دوكاستري الحجرية التي تفتتح ديباجتها هكذا: "النفحة المسكية في السفارة التركية، تأليف الإمام العلامة المدرّس أبي الحسن سيدي علي بن

المعظم أبي عبد الله سيدي محمد الجزولي التمقروتي نفعنا الله ببركاته ورضي عنه عدد صفحاتها 190 صفحة.

5-نسخة الباحث التونسي سليمان الصيد، الذي نشر هذه الرحلة في تونس سنة 1985م، عن دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، وأنها مأخوذة من نسخة دوكاستري الحجرية.

6-النسخة التي حققها عبد اللطيف الشاذلي و أصدرتها المطبعة الملكية بالرباط سنة 2002م، عدد صفحاتها 198، و قد قدّم الشاذلي للرحلة كما ذيّلها بكشاف للأعلام والأمكنة والمصطلحات الأجنبية والمؤلفات مع تعريف بالأعلام أسفل الصفحات[31].

7-النسخة التي حققها و قدّم لها محمد الصالحي وأصدرتها المؤسسة العربية للنشر، بيروت سنة 2007، وهي منقحة و وضع لها فهارس متنوعة، كما حدّد وضبط مسار الرحلة[32]. وهذا ما يؤكد اهتمام كبير من قبل المؤرخين لهذه الرحلة على مدى قرن من الزمن.

- مضمون الكتاب:

يتضمن الكتاب الرحلة البحرية الشاقة من تطوان إلى إسطنبول ثم منها إلى تطوان، يستهل التمقروتي الحديث عن رحلته بذكر ذلك الاستدعاء الذي وصله إلى مكان إقامته بمنطقة تمقروت من إقليم درعة، وكان هذا الاستدعاء بمنزلة أمر جازم لا مناص له من امتثاله ليقوم برحلة

شاقة إلى عاصمة الخلافة الإسلامية، و الأمر صادر عن الملك أحمد المنصور الذي كان مقيما بعيدا عن مراكش بمدينة فاس.

و يؤرخ التمقروتي خروجه من تمقروت يوم السبت 1 جمادى الأولى سنة 997هـ الموافق لسنة 1589م، مودّعا الأهل و الأحباب، و قد قدّم وصفا دقيقا لمغادرته لبلدته ضمّنه كثيرا من اللوعة و البكاء، كأن خروجه من درعة خروج فعلي إلى مكان غريب عنه، حيث قال: " خرجنا...من ديارنا بتمـڤروت، بلدنا الذي طال سناه و طاب معناه...مودعا لجميع الأهل ومتجرعا من ذلك ما ليس بالعذب ولا بالسهل، و كان لذلك الوداع موقف مشهور مشهود...و سرنا بعزمة لا يفل حدّها...و أنا بين ظفر التوحش ونابه...و أبدي من الحنين ما لا تطيق الجوانح أن تحنه...ثم وقفت بالثنية المشرفة وقفة مسلم و ودعت البلاد وداع المتألم:

و فارقت ما فارقت لا عن ملالة ودعت من ودعت لا عن تعوّض

ودعـت قلبـي يـوم ودعـتهم و قـلـت يا قلبي عليك السـلام[33]

وقد سلك (التمقروتي) طريق إقليم سجلماسة، والمسافة بين تمقروت وسجلماسة وفاس مسافة طويلة و متنوعة الطبيعة من جبال ونجود وصحاري وسهول، إلا أن التمقروتي لم يشغل نفسه ولا قلمه بوصفها و إفادتنا بما يمكن أن يكون لديه من معلومات جغرافية وتاريخية وحضارية عنها.و بعد خمسة وعشرين يوما يحطّ رحاله بمدينة فاس، حيث يقيم المنصور فيستقبله و يرحّب به و يكرّمه و يقرّبه من مجلسه الخاص

بالرؤساء والأعوان والكتّاب والسفراء الوافدين، و فيهم سفراء الخلافة العثمانية الذين حملوا إلى المنصور رسائل و هدايا دولتهم.

و اغتنم (**التمقروتي**) المناسبة للإشادة بمظاهر عظمة دولة المنصور فوصف بروزه إلى خارج المدينة في موكب رسمي حيث ضربت له سرادقات و قباب وأروقة ملونة على هيئة خاصة و فرشت الأرض بالبسط و أقيمت معالم الزينة، وقد جاء في آخر هذا الوصف: (و القصر الذي يكاد لمعانه يخطف الأبصار، قد نقش ذلك أحسن نقش و ملي بأبهى فرش، و للسرادق الذي هو كالسور أبواب كأنها أبواب مشيدة القصور يدخل منها إلى دهاليز و تعاريج ثم يفضي بها إلى الفصل الذي فيه القباب و القصر فكأنه مدينة قد أحدق بها سور مشرق تنتقل بانتقال السلطان وتنزل بنزوله، وهي من الأبهات الملوكية التي لم تعهد عند الملوك الماضية...)[34].

ولم يفصح (**التمقروتي**) عن موضوع السفارة و سرّها وهدفها، وإنما تحدّث بإيجاز و اقتضاب أن المنصور أرسله مع رفيقه محمد بن علي الفشتالي سفيرين بهديته و رسائله إلى إسطنبول، اصطحبهما الرسل، على حدّ تعبيره الذين حملوا بدورهم هدية و رسائل العثمانيين إلى السلطان أحمد المنصور.

و حديث (**التمقروتي**) عن رفيقه محمد بن علي الفشتالي طيلة فصول الرحلة ذهابا و إيابا و سفرا و إقامة حديث طيب كريم يتسم

بالتقدير و التكريم والإشادة بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات والاعتراف بما كان يقدّمه إليه أثناء الأزمات والأخطار من تسلية و تصبير و تطمين ونصح، وذكر ما تبادلا من قطع شعرية تعبّر عن صادق المودّة وجميل المعاشرة.

و يظهر أن (**التمقروتي**) كان شديد الخوف من البحار وأهوالها و قد تحدث عن ذلك في جلّ فصول الرحلة و اعترف بأن الله ابتلاه بهذا الخوف مع أنه سليم الجسم قوي القلب و كانت أخبار القرصنة يتناقلها الناس كما يتناقلون أخبار أولئك الناس الذين يقعون أساري في يدّ هؤلاء القراصنة و لا يفدون إلاّ بعد محن وشدائد، و خوف(**التمقروتي**) من البحر يتردد في مختلف مقاطع رحلته، فقد قال: (وقد خصّني الله سبحانه بالخوف الكثير بالبحر، دون أصحابي، حتى كاد الخوف أن يمنعني النوم، ينام الناس و أسهر أنا أرعى السفينة، لا أقدر على ميلها و إذا بدا الريح و تحرك البحر و أزيد...فإذا رأيت ذلك طار عقلي فرقا و خفت أن أموت غرقا[35]) .

و قد أورد حكاية معبّرة تمثل موقفه من البحر، قال: (و مما يحكى في بلادنا أن رجلا ممن امتحن في البحر و ابتلى ببلائه حلف ألا يسكن إلا في بلد لا يعرفون البحر و لا آلاته فرفع مقدافا و جعل يسير من بلد إلى بلد، و يعرفه للناس، إلى أن أتى به درعة، فقال لأهلها: ما هذا؟ فقالوا: هذا آلة يدخل بها الخبز في الفرن ويستخرج، فسكن هناك[36].و منذ إجتياز ميناء تطوان، و هو يتحدث عن المراسي التي تمر بها العمارة البحرية، من ترغة

وبادس و رأس ورك، المطل على مدينة مليلية، و جزر ملوية التي وقفت بها السفينة يومين.

وتابع حديثه حول مراسي و مدن هنين و وهران و مستغانم و تنس وشرشال والجزائر ، أقام مدّة مكنته من أن يعرفها و يعجب بها: فهي كثيرة الأسواق والسلع والكتب والطلبة والسفن والجند، و لاحظ تحصين أبراجها وشجاعة رياسها وتفوقهم العسكري حتى على أتراك القسنطينية و أرغمته نزاهته وأجبرته أمانته أن يعترف بأنها: (أفضل من جميع بلاد إفريقيا و أعمر ... حتى أنهم يسمونها اصطنبول الصغرى)[37]. كما تحدث أيضا على بجاية وجيجل و بونة.

والمعلومات التي جاءت في حديثه أنه ينقل كثيرا من كتاب (العقد) لإبن عبد ربه الأندلسي، وأيضا من رحلة: (تاج المفرق) الشهيرة للبلوي الأندلسي، كما نقل عن الجغرافي اللغوي الأندلسي، أبي عبيد البكري وعن القاضي عياض السبتي، والرحالة ابن بطوطة و غيرهم...

وطبيعة هذه المعلومات تنسجم مع معلومات **(التمقروتي)** و ثقافته المهتمة بأعلام المدن و أعلام الفقهاء و الصالحين و أخبار الدول المتعاقبة على هذه الأقطار.و نفس الشيء قدّمه **(أبو الحسن التمقروتي)** عن مراسي البلاد الأخرى من بنزرت ، تونس ، سوسة ،المنستير ، المهدية ، صفاقس ، قـابس ، جربة وغيرها من المعلومات الجغرافية والتاريخية والملاحظات الشخصية.

و نشعر و نحن نقرأ بعض النصوص التي اقتبسها (**التمقروتي**) ولاسيّما من رحلة (تاج المفرق) بشيء من الملل لطولها و اهتمامها بأشياء كانت طريفة في عهد البلوي، فكان ينبغي أن يتجاوزها (**التمقروتي**) ويقتصر على ما يريد به تدعيم معلوماته ومشاهداته الشخصية التي استجدت في تلك البلاد بعد عصر البلوي.

و أثناء الحديث يستعمل (**التمقروتي**) بعض المصطلحات التي تلفت النظر منها كلمة (صندل)[38] و الجمع (صناديل) و الكلمة تعني المركب الصغير و قد لاحظ هذه الصناديل بجوار جزيرة جربة وغيرها من الشواطئ التونسية يحمل كل صندل منها ما بين عشرة و عشرين من الركاب...و منها كلمة (سواخة) بالخاء و قد كتبت خطأ سواحة بالحاء في بعض النقول الخطية من الرحلة، فيقول التمقروتي: (و بين نفزاوة يسار إلى بلاد قسطيلة، و بينهما أرض سواخة لا يهدي إلى الطريق فيها إلا خشب منصوبة فإن ضل أحد يمينا أو شمالا غرق في أرض تشبه الصابون، قد هلك فيها عساكر و جماعات...)[39].ومنها كلمة الحامض بمعنى الليمون فنجده يتكلم على جزيرة جربة ويقول: (وأنواع الحامض فيها كثيرة)[40].

و نلاحظ على نقول (**التمقروتي**) من رحلة ابن بطوطة أنه يأتينا بنص منها عن مدينة (قـابس) لا نجده في نسخة رحلة ابن بطوطة المطبوعة

مما يدلنا على أنه كان يملك نسخة من هذه الرحلة بها زيادات على النسخة المطبوعة[41].

و عندما وصل إلى مدينة طرابلس أبدى بعض آرائه فيما رأى و سمع من نظام الحكم و الإدارة التركية في كل من تونس و طرابلس، وذكر المظالم والمناكر التي يتعرض لها الناس هناك، و يقول إن عددا من المصريين وغيرهم ممن اتصلوا به في القسطنطينية يتقدون الأحوال السيئة التي يعيشون عليها و يتمنون أن يجدوا السبيل إلى الانتقال إلى المغرب[42].

وحاول **(التمقروتي)** أن يعطينا شيئا عن تاريخ عاصمة العثمانيين ونظامها العسكري و ما يوجد بها من حصون و ثكنات للجيش ومراقبة المضائق وحراسة مستمرة و تيقظ دائم لما يطرأ من مفاجآت من طرف الأعداء.

غير أن مسجد –أيا صوفيا– يستولي على إعجابه فينطقه بذلك الوصف الممزوج بالتاريخ والاعتبار والإشادة بعظمة الإسلام والمسلمين الذين فتحوا القسطنطينية وجعلوا من كنيستها العظمى مسجدا للمسلمين... وكذلك قصر السلطان (السراي) ينطقه بوصف دقيق لحاله من نظام وما يحيط به من تقدير وهيبة وما فيه من مظاهر العظمة والأبهة[43].و عند عودته من القسطنطينية وأثناء وصوله إلى مراكش، وصف **(التمقروتي)** قصر البديع و ما أنجز فيه من منشآت تأخذ بالألباب، وحضر حفلات إحياء ذكرى المولد الشريف، و وصف ما شاهده فيها من مظاهر

الزينة التي أحاط بهذه الحفلات من مطاعم و مشارب و فراش و أثاث كما وصف عمل المنشدين والشعراء الذين تقدّموا بين يدي المنصور و أنشدوه في موضوع السيرة النبوية[44].

وتنتهي الرحلة برجوع التمقروتي إلى بلدته بعدما يقرب من سنتين قضاهما في ترحال وسفر و إقامة ويأس ورجاء و انكب في كتابة هذه الفصول وهي فصول جديرة بالدرس لما فيها من معلومات جغرافية وتاريخية وعمرانية ولغوية تعكس نمطا من أنماط الأدب والثقافة في عهد المنصور الذهبي خاصة وعصر السعديين عامة.

ولأهمية هذه الرحلة فإنها في حاجة إلى تحقيق نصها تحقيقا علميا مناسبا يشمل تكميل النقص الذي نشاهده في بعض فقراتها، بحيث تعرضت للبتر و الضياع في العديد من الصفحات، و الذي يدّعم هذا الاعتقاد وجود الأماكن الفارغة وضع فيها حذف: (فأصغت الأذن عند ذلك بحسن الاستماع إلى محاسن السماع فغنوا وأطربوا بألحانهم البديعة وأوتوا الأمداح النبوية والقصائد المولدية (حذف) هو الشيخ الماهر و حرك من السكون الجامد)[45].

أما على مستوى سمات شخصية (**التمقروتي**)، فإن خطابه السياسي هذا يخفي حقيقة شعوره بالانتماء إلى كيان واحد هو الملة الإسلامية و تنقله في مجال واحد هو بلاد الإسلام، فلا يظهر من خلال نص رحلته أي إحساس بأنه بقطعه مراحل سفره يخرج من كيان إلى كيان آخر متميز، إلا

ما كان من دعائه بأن يعيدها الله إلى أرض الإسلام، كلما اجتاز ثغرا يحتله النصارى، فقد أرفق حديثه عن مليلية بدعاء: (أعادها الله للإسلام آمين)[46]. و عندما وصل إلى وهران ذكر أن (فيها النصارى دمرهم الله و أعادها للإسلام)[47].

في الأخير نشير إلى أن الرحلة تعكس ظروف صعبة رافقت **(التمقروتي)** طيلة سفره بحرا مرورا بمجموعة من المدن الجزائرية والتونسية والليبية حتى القسطنطينية، هي كلها تشكل مراحل أساسية داخل الرحلة.

و مهما يكن فإن كتاب (النفحة المسكية) لا يخلو من قيمة تاريخية، لذلك فلا غنى عن هذا المصدر في معرفة أحوال الدولة العثمانية في أوج ازدهارها وأحوال الجزائر و المغرب الأقصى وتونس وأيضا ليبيا في أواخر القرن السادس عشر الميلادي. تكتسي إذن كتابات الرحالة قيمة علمية وتاريخية، هي مصدر هام لوصف الثقافات الإنسانية عبر التاريخ، كما يوضح قيمتها التعليمية من حيث أنها أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، و إثراء لفكره و تأملاته عن الكون و الحياة.

لقد لعبت الرحلة دورها التاريخي الهام في الكشف الجغرافي والحضاري على حدّ سواء، وتضمنت أيضا كتابات الرحالة الوصف الجيد والغني بالتفاصيل لمختلف خصائص البلدان و طبائع أهلها، كما أبرزت حقيقة تعدد الأقوام و تنوع الثقافات في شتى أنحاء العالم.

الإحالات

[1]- ألف كتابا عن مادة الرحلات عام **1785**م، و قدّمه للملك لويس ملك فرنسا في ذلك الوقت.

[2]- فؤاد، قنديل ، أدب الرحلة في التراث العربي، الدار العربية للكتاب، ط**2**، القاهرة، **2002**، ص **21**.

[3]- هو توماس ستيرنز إليوت، شاعر ومسرحي و ناقد أدبي حائز على جائزة نوبل في الأدب سنة **1948**م، ولد سنة **1888**م، توفي سنة **1965**م، و هو أمريكي المولد، انتقل إلى المملكة المتحدة في سنة **1914**، ثم أصبح أحد الرعايا البريطانيين في سنة **1927**. أنظر: الموسوعة الحرة

[4]- سورة الأنعام، الآية **11**.

[5]- سورة الملك، الآية **15**.

[6]- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار ، تحقيق، عبد الهادي التازي، الرباط **1997**، مج **4**، ص ص **56**، **59**، **63**، **78**/ الحسن بن محمد،الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، ط**2**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان **1983**،ج**2**، ص ص **245**-**299**.

[7]- الوزان، المصدر نفسه، ج**1**، ج**2** / ابن بطوطة، المصدرنفسه، مج **1**، **2**، **3**، **4**.

[8]- علي بن محمد، التمقروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم و تحقيق، محمد الصالحي، ط**1**، **2007**، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ص ص **174**-**175**.

[9]- الحسن، الشاهدي، المرجع السابق، ج**2**، ص **537**.

10- نفسه، ص **538**.

11- هو أبو علي حسن بن الفكون، ولد سنة **1580** بقسنطينة، أديب، و كان يحب التجوال، فرحل إلى مراكش، و اتصل بخليفة بني عبد المؤمن فامتدحه و نال أعظم الجوائز عنده.

12- الحسن، الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المرينى، ج**2** منشورات عكاظ (د.ت) ، ص **539**.

13- التمقروتي، المصدر السابق، صفحات عديدة.

14- نسبة إلى منطقة تمقروت، و هي كلمة أمازيغية، هي إحدى جماعات مقاطعة فزواطة التي تعتبر إحدى المقاطعات الست التي تتكون منها درعة الأوسط: (مزكيطة، تنزولين، ترناتة، فزواطة، الكتاوة، المحاميد الغزلان) و قد ارتبطت في تاريخها بزاويتها المعروفة بـ"الزاوية الناصري".

15- يحدها من الشمال، ورزازات، و من الشرق إقليم قصر السوق، و من الجنوب جبل باني و الصحراء والأطلس الصغير، وغربا إقليم أكادير.

16- هو أبو محمد عبد الله الغالب بالله ولد سنة **1517**م وتوفي سنة **1574**م حكم بين **1557** – **1574**م.

17- يقصد جزيرة كابري، التي هي الآن من الجزر الإيطالية، تقع في جنوب غرب روما، و هي من المعالم السياحية بمناظرها الخلابة.

18- عالم و فقيه و أستاذ السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، ولد سنة **929** هـ اشتهر في حياته بالصلاح و الزهد، له عدّة مؤلفات أشهرها "الفهرس"، توفي سنة **995** هـ/ **1587**م.

19- علي بن محمد، التمقروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم و تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط **2002**، ص **5**.

20- هو أحد ملوك المغرب العظام، ولد بفاس سنة **1549**م، و بويع في ساحة معركة وادي المخازن الظافرة: أوت **1578**م بعد مقتل السلطان عبد المالك، يعتبر عهده الذي دام حوالي ست و عشرين سنة أزهى عهود الدولة السعدية رخاء و علما و عمرانا و قوة، توفي سنة **1603**م بمرض الطاعون.

21- مولاي، بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ش.و.ن.ت، الجزائر **1979**، ص **16**.

22- التمقروتي، المصدر السابق، ص **6**.

23- هو رحالة، ينتسب إلى قبيلة البلويين، المنتشرة في عدّة بلدان إسلامية كالأندلس والمغرب، سافر من موطنه الأندلس إلى المشرق، وأثناء رحلته ألّف كتاب بعنوان "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، فوصف فيه ما شاهد من الأقطار، و تحدّث عمن اتصل بهم من الرجال، وقد بالغ التمقروتي في الاعتماد على هذه الرحلة، التي تصادف رحلة ابن بطوطة.

24- هو أحمد بن عبد ربه، ولد بقرطبة سنة **860**م، و نشأ بها، ثم تخرج على علماء الأندلس ودبائها، وأمتاز بسعة الإطلاع في العلم و الرواية والشعر، و أشهر كتبه "العقد الفريد" وهو كتاب جامع للأخبار و الأنساب و الأمثال و الشعر و العروض و الموسيقى، توفي سنة **942**م.

25- رحالة مغربي، ولد بطنجة سنة **1304**م، مؤرخ و قاضي و فقيه، لقب بأمير الرحالين المسلمين، زار عدّة بلدان إسلامية، و وصفها في كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ترجمت رحلته إلى عدّة لغات، مات في مراكش سنة **1377**م.

26- هو أبو عبيد البكري، نسبة إلى بكر بن وائل، ولد سنة **1014**م، و توفي سنة **1094**م، هو أديب و جغرافي و مؤرخ و عالم النبات، و هو أول الجغرافيين في الأندلس، أشهر ما ألفه كتاب "المسالك و الممالك" وصف جغرافية الأندلس و أوربا، و إفريقيا الشمالية.

27- ولد بسبتة سنة **1083**م، و نشأ بها و تعلّم و تتلمذ على شيوخها، ثم واصل تعليمه في الأندلس، حتى أن أصبح قاضيا، فقيها و مؤرخا، و من أشهر مؤلفاته: ﴿ترتيب المدارك و تنوير المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك﴾، قتل سنة **1149**م.

28-التمقروتي، المصدر السابق، تقديم و تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، ص **10**.

29- قمنا بتصوير جزءا من النسخة، بعد إصرارنا مع مدير المكتبة، أنظر الملاحق.

30-- HENRY, DE CASTRIES, EN-NAFAHAT EL-MISKIYA FI-SIFARAT ET-TOURKIYA, Relation d'une Ambassade Marocaine en Turquie **1589**-**1591**, Paris, **1929**.

31- علي بن محمد، التمقروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم و حقيق عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط **2002**.

32- هي النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث بنسبة كبيرة

33- التمقروتي، المصدر نفسه، تقديم و تحقيق محمد الصالحي، ص ص **32**، **33**، **34**.

34- نفسه ، ص **36**.

35- نفسه ، ص **107**.

36- نفسه ، ص **159**.

37 - نفسه، ص **105**.

38- نفسه ، ص **96**.

39- نفسه ، ص **91**.

40- نفسه ، ص **96**.

41- نفسه، ص **91** ، أنظر رحلة ابن بطوطة ج**1**، ص **8**، ط، القاهرة **1958**.

42- نفسه ، ص **97**.

43- نفسه، ص ص **113**،**114**.

44- نفسه ، ص **174**.

45- نفسه ، ص **175**.

46- نفسه ، ص **40**.

47- نفسه ، ص **41**.